لماذا هذا الصمت؟

بقلم: غسان سلامة

الحياة - ٨٢/١١/٩

■ منذ ٢٣ ايلول (سبتمبر) الماضي تتنازع لبنان حكومتان متنافستان، يراس احداهما الدكتور سليم الحص، وثانيتهما اللواء ميشال عون. غير ان هناك اسمين غابا تماماً، بحيث لم ينطق بهما احد البتة، عن مؤتمر واسع حضره حوالي ثلاثين شخصية سياسية وثقافية لبنانية الى جانب عدد غفير من الاميركيين (بمن فيهم السفير نيوتن والمستشار لوبارون)، هذان الاسمان هما بالذات اسم عون والحص.

ورحت اتساءل وقد انطفأت اضواء القاعة التي جمعتنا على تلك الهضبة المطلة على سهول ماساشوستس: اولم نجتمع في الأساس للبحث عن مخرج من مازق الحكومتين، فما قمنا بالفعل الا بتجاهلهما؟ اوليس كل من عون والحص، في المرحلة الحالية، الوجهين البارزين لواقعين جغرافيين متمايزين؟ اوليس واحدهما على الأقل رئيس حكومة محترماً (ولو انه «سابق» فقط في نظر بعض الحاضرين)، وثانيهما على الأقل قائد لما تبقى من الجيش اللبناني؟

لكن الصمت لف الاسمين ودفعنا الى البحث عن مسبباته، وهي قد تكون مثلثة. لا ريب اولاً في ان اللبنانيين الموجودين في القاعة (واصدقاؤهم في الولايات المتحدة) ما زالوا يطمحون، اكثر من اي وقت مضى، الى إعادة توحيد البلاد، وإجراء انتخابات رئاسية في اقرب وقت ممكن، لذا فقد تحاشوا ابراز شرعية مقابل شرعية لكي لا يحرج الواحد منهم الآخر، فيضطر الجميع الى التفوه بكلام قاس، او على الأقل حزبي، كل وفقاً لموقعه.

اضف الى ذلك سبباً ثانياً مفاده ان هؤلاء بالذات يعتقدون ويأملون ان ظرف الثنائية الحكومية الحالي، لا ريب موقت فلم بالتالي اضاعة الوقت الثمين في مناقشته؟ أوليس من الافضل الانتقال مباشرة الى المسائل الدائمة الاقامة كالطائفية والتحرير والعلاقة الثنائية بسورية مثلاً؟

غير ان سبباً ثالثاً يتبادر الى الذهن: اوليس سبب الصمت اعتقاداً دفيناً بان الحكومتين المذكورتين لا تمثلان شيئاً اساسياً على الأرض؟ ففي المنطقة الشرقية من العاصمة يسعى اللواء عون لأن يكون (او يصبح) الرجال الأول ولكنه بعيد جداً حتى الساعة عن تحقيق هذا الأمل، بل يمكن القول ان نجاح عون في الشرقية سيؤدي الى فشله السياسي على مستوى الوطن ككل. اولسنا نراه يتحرك فعلياً على الارض السياسية التي اورثها مثال بشير الجميل؟ اوليست مفرداته بشيرية في مقابلاته الكثيرة؟ من هنا الرأي القائل بأن عون، ان فشل في إحكام سيطرته على المنطقة الشرقية، فهل يفقد امله في الرئاسة. وان هو نجح، يكون ثمن نجاحه تبنيه الضمني لمقولات وافكار وربما اهداف القوى التي قد يتمكن من السيطرة عليها.

اما في الجانب الغربي من العاصمة، وفي المناطق التي ليست خاضعة لعون وجعجع، فيصعب القول ان حكومة الدكتور الحص هي الفعالة. فالقوة الاساسية، امنياً وسياسياً، هي النابعة من الجيش السوري، ناهيك طبعاً عن التنظيمات المسلحة على اختلاف انواعها.

لذا حين قيل لديبلوماسي اميركي ان الوضع في لبنان يتمثل في حكومتين، اعترض قائلاً ان الحكومة ما زالت واحدة، ولكن على راسها مجلسان وزاريان اثنان. وكانه يقول ان لا تاثير لهما طالما بقيت القاعدة من تحتهما موحدة قدر الامكان حتى لو اضطر اللبنانيون الى استنباط وسائل قانونية جديدة مبتكرة، من مبدأ المرسومين المتماثلين، الى المذكرات الشفوية بدلاً من المكتوبة.

ولكن حتى متى تستطيع هذه الاوضاع ان تبقى هكذا، «لا معلقة ولا مطلقة»، الى ان يسعى احد الطرفين مجدداً الى القيام باعمال تكسر الصمت الذي لف اسمه في بوسطن: من خلال تعيين او فصل او تبديل اساسي في الادارة. ولو انه يصعب تصور الرئيس الحص وهو يبادر (دون ضغط شديد عليه) في هذا المنحى، فمن الممكن ان يضطر اللواء عون، وهو متجلبب ببعض الاعتبارات القانونية التي ليست للحكومة المقابلة، الى اتخاذ اجراءات تجعلنا في مؤتمر لاحق كالذي عقدناه في بوسطن، نخرج جميعاً عن صمتنا، ونردد اسمه للتاييد او للتنديد.

حينذاك لا يعود صمت المثقفين ممكناً ولو انهم، في غيرتهم المعلنة على وطن موحد، قد يتمنون ان يدفعهم احد الى قطع الصمت الذي ميزهم في بوسطن، والذي سمح لهم في النهاية بالتوافق على التجاوز الضمني.